الفصل الخامس

كـارل ماركـس
(التفكير المادى)

١ – حياته
٢ – أهم كتبه
٣ – فلسفة ماركس
المادية الجدلية – الجدل وقوانينه – المادية التاريخية
الصراع الطبقى – نظرية المعرفة – نظرية فائض القيمة
٤ – ملاحظات نقدية لآراء وفكر ماركس
٥ – لماذا كارل ماركس

كارل ماركس Karl marx
(١٨١٨ – ١٨٨٣م)

١ - حياته:

ولـد فى مدينة «تريف Treve» فى ٥ مايو عـام ١٨١٨م. كان والده يعمـل محاميا ولكن له أهتمامات بالفلسـفة، وكان والداه يهوديين، ثم انقلبا إلى اعتناق المسـيحية وأصبحت أسـرته «بروتستانتية» أتم ماركس دراسـته الابتدائيـة والثانوية فـى مدينته، ثم أكمل دراسـته العليا فى جامعـات بون وبرلـين وبينا. وقد درس ماركس التاريخ والفلسـفة وتأثر بالفيلسـوف الألمانى «هيجل» وأثنـاء وجوده فى جامعة برلين، انضم إلى جماعة من الطلبة يطلقون على أنفسـهم اسـم «الهيجلين اليسارين». فى عام ١٨٤١م حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة «بينا» ولكنه لم يعمل بالتدريس الجامعى. فى عام ١٨٤٢م اتجه إلى الاشتغال بالصحافة وكتب عددا من المقالات يهاجم فيها الراجعية الألمانية مما أدى إلى طرده من عمله الصحفى، وشدة إيمانه وتمسكه بمبادئ الاشتراكية والشيوعية، وقد علمه والده كراهية الظلم والاستبداد، وحب الحرية والديمقراطية.

فى عام ١٨٤٣م تزوج من ابنة موظف كبير يعمل فى الحكومة، وكان زواجه هذا عن حب عميق مما كان سـببا فى اسـتمراره برغم ما تعرض له ماركس من مشـاق وفقر طوال حياته. وفى نفس العام الذى تزوج فيه طرد من عمله الصحفى، فما كان منه إلا أن هاجر إلى باريس مع زوجته

حيث تعرف فيها إلى فلاسفة الاشتراكية الفرنسيين، كما تعرف أيضا إلى صديق عمره «فردريك انجلز» اللذين ادركا وحدة الاتجاه الشيوعى عندهما، وهذا هو سبب الصداقة الوطيدة بينهما.

فى عام ١٨٤٤م طرد ماركس من فرنسا فهاجر إلى بلجيكا حيث أخذ هو وأنجلز يقيمان صرح نظريتهما الجديدة فى الاشتراكية، ولذلك عكفا على دراسة المذاهب الاشتراكية القائمة كما تعمقا فى دراسة التاريخ والاقتصاد السياسى، ثم شرعا بعد ذلك فى مناقشة ومجادلة آراء معاصريهم من الفلاسفة والمفكرين فأصدروا معا كتابى «العائلة المقدسة» و «الايدلوجية الالمانية» وكان ذلك فى عام ١٨٤٥م، وفى عام ١٨٤٧م أصدر ماركس كتابا صغيرا يحتوى على مقدمة وفصلين بعنوان «فقر الفلسفة» يرد به على كتاب الفيلسوف الفرنسى «برودون» والذى كان يحمل عنوان «فلسفة الفقر» حيث نجد ماركس يسخر من آراء «برودون» ويتهمه بالجهل فى آرائه فى الاشتراكية والاقتصاد، ثم يشرح رأيه هو فى المادية التاريخية. ويعتبر النقاد والمفكرون هذا الكتاب بداية لأفكار ماركس فى التفسير الاقتصادى للتاريخ، وتحديد الأساس العلمى لنظريته فى الاشتراكية. وقد أراد ماركس وانجلز أن يضما أفكارهما النظرية فى الاشتراكية موضع التجربة والأختبار فقاما بالاتصال بالحركات العمالية فى أوربا لإرشادها وقيادتها. وقد تم لهما ذلك عن طريق انشاء جمعية دولية لتوجيه الحركة الأشتراكية تحت اسم: «الدولية الاشتراكية»..

فى عام ١٨٤٨م أصدر مع صديقه انجلز كتابه الشهير والمعروف باسم: البيان الشيوعى والذى يحتوى على خلاصة فلسفتهما الاجتماعية. وقد

كان هـذا البيـان بمثابة برنامج لأول تنظيم للشـيوعيين يتضمن المبادئ الجديـدة التى يجب أن يهتدى بها العمال فـى صراعهم مع أصحاب العمل البورجوازيين.

بعـد قيام الثورة فى بلجيكا طرد ماركس منها فعاد إلى ألمانيا، ولكن ما لبث أن طرد منها أيضا، فسافر إلى لندن حيث استقر هناك.

فى عام ١٨٥٩م أصدر ماركس كتابه المعروف «نقد الاقتصاد السياسى» والذى يعتبر بمثابة مقدمة لكتابه الأشهر «رأس المال» والذى ظهر الجزء الأول منه عام ١٨٦٧م ثم كرس ماركس حياته لاستكماله فألف جزأئين آخرين نشرهما انجلز بعد وفاة ماركس.

فى عام ١٩٦٤م ساهم ماركس فى إنشاء «الاتحاد الدولى للعمال» ولكن هذا الاتحاد كان مآله الفشـل حيث أنحل عام ١٨٧٢م بسبب الخلاف بين ماركس وإتباعه من ناحية وبين «باكونين» صاحب مذهب الفوضوية من جهة أخرى..

فى أواخر عام ١٨٨١م تقريبا ماتت زوجته، وقد لحقها هو بعد حوالى خمسـة عشر شهرا تقريبا حيث توفى ماركس فى يوم ١٤ مارس ١٨٨٣م بعـد حياة حافلة مليئة بالبحث والدراسـة والتأليف وبالمشـاركة الفعلية بالكفـاح إلى جانب الطبقة العاملة. ومع ذلك كانت حياته بالغة القسـوة والفقـر أنجب كثيرا من الأولاد ولكن أغلبهم مات وهو ما زال فى مرحلة الطفولة ولولا مساعدة صديقه أنجلز له، لما استطاع أن ينتج أو يفكر، ولا انشغل بالبحث عن توفير وسائل المعيشة الضرورية أو لمات جوعا..

ومع ذلك فقد استطاع ماركس أن يترك أعمق الأثر فى الفكر الفلسفى عامة والفكر الاشتراكى خاصة، وترك لنا مجموعة من الآراء لازال الجدل

يحتــدم حولها حتى الآن، برغم ســقوط منظومة الدول الاشــتراكية لأن الصين وكوبا لازالا يؤمنان بالاشتراكية والشيوعية.

٢ - أهم كتبـه:

* حول المسألة اليهودية أصدره عام ١٨٤٤م.
* نقد الاقتصاد السياسى نشره عام ١٨٤٤م.
* الايدلوجية الألمانية عام ١٨٤٥م.
* البيان الشيوعى «بالاشتراك مع انجلز» نشره عام ١٨٤٧م.
* الصراعات الطبقية فى فرنسا وقد نشره عام ١٨٥٠م.
* رأس المال، وقد نشر ماركس جزءا واحدا منه أثناء حياته عام ١٨٦٧م، وقد نشر انجلز جزئين آخرين بعد وفاة ماركس. ويعتبر هذا الكتاب أهم كتب ماركس على الاطلاق.
* تاريخ العقائد الاقتصادية، وقد نشره عام ١٨٦٥م.

وبالإضافة إلى هذه الكتب المهمة، كتب ماركس مجموعة من الرسائل تتناول مختلف الموضوعات السياسية والاقتصادية والفكرية والتى كانت سائدة فى عصره، وقد تبادل ماركس هذه الرسائل مع عدد من أصدقائه الثوريين الباريزين فى عهده.

٣ - فلسفة ماركس

مقدمـة:

يمكن القول أن تيار الفلسفة الألمانية الذى انتهى عند «هيجل Hegel» و «فيورباخ Furbach» يعد المصدر المباشــر الذى اســتمدت منه الفلسفة

الماركسية عناصرها الأولية فالجدل عند «هيجل» والمادية عند «فيورباخ» قد تزاوجا لينتج عنهما مركب هو.. الفلسفة الماركسية.

ولكن مع ملاحظة أن.. فى الوقت الذى طبق فيه «هيجل» الجدل فى مجال الأفكار، نجد ماركس قد طبق الجدل على المادة.

كذلك يمكن القول أن ماركس «ومعه صديقه انجلز» قد استنبط فلسفته من الفلسفة الالمانية بصفة عامة، ومن الاقتصاد الإنجليزى الحر، ومن الفكر السياسى الفرنسى. وقدم هو وانجلز نظرية متكاملة للتفسير والتغير معا.

وسوف نعرض للفلسفة الماركسية من خلال النقاط التالية وبشىء من الإيجاز الواضح ثم نعلق عليها فى النهاية..

١ - المادية الجدلية:

إن الموضوع الرئيسى للمادية الجدلية هو حل المشكلة الأساسية فى الفلسفة وهى مشكلة الفلاسفة بين الفكر والوجود أو الروح والمادة. وهى تلك المشكلة التى عالجها الفلاسفة منذ أفلاطون، واختلفوا فى تفسيرهم حول علاقة الروح بالمادة أو النفس بالجسم حتى جاء ماركس وفسر هذه العلاقة تفسيرا ماديا يتفق مع نزعته الأساسية.

ماذا يقصد ماركس بالمادة؟.. وما هى صور هذه المادة؟

المادة وصورها؟..

يعنى ملركس بالمادة البحتة أو المادة بمفهومها الفلسفى العام: الوجود الخارجى المستقل عنها. وهذا يعنى أن هذه المادة تتميز بوجود موضوعى

خارجى مستقل عن شعورنا بها. ولكن بالرغم من استقلال المادة عنا إلا إنها تنعكس على شعورنا. واذا كان العلم يكشف لنا فى مراحل تطوره صور مختلفة للمادة فإن ذلك لا يعن أن المادة تتلاشى وتفنى، وإنما يعنى ذلك – كما يقول لينين – اختلاف مواقعنا العلمية من «وحدة» المادة: فمثلا بالأمس كانت الذرة هى الوحدة، واليوم أصبح الأليكترون هو الوحدة وربما تكون الوحدة شيئا آخر غير الذرة والأليكترون فى الغد أوفى المستقبل وبالغم من ذلك تبقى المادة من حبث مفهومها العام ثابتة لا تتغير هى كما قلنا. وجود خارجى مستقل عنا.

وعلى ذلك يصبح العالم كله ماديا محضا، وكل ما فيه إنما هو صورة من صورة المادة.. ولكن هل المادة ساكنة لا تتحرك ؟. وكل ما فى الوجود جامد لا يتحرك ؟ يرى ماركس أن المادة ليست جامدة، وكل صورها فى الوجود ليس جامدا وإنما المادة وصورها تتحرك.. فى الزمان والمكان وعلى ذلك تصبح الصور الأساسية للوجود المادى هى:

الحركة والزمان والمكان...

فما هى الحركة والزمان والمكان ؟..

يقول أنجلز: إن الحركة هى أسلوب وجود المادة، فلا توجد مادة بدون حركة إذن الحركة تكشف عن وجود المادة، وهذه الحركة أزلية ومطلقة. وفى مقابلها السكون الذى هو نسبى ومؤقت والحركة عند ماركس وأنجلز لها صور متعددة أهمها:

المادية الجدلية، والحركة الميكانيكية، والحركة الفيزيقية، والكيميائية والبيولوجية والاجتماعية. وعلى الرغم من تنوع وتعدد صور الحركة،

فإنهـا مترابطـة وغير منفصلة، ويرجـع ذلك إلى الوحـدة المادية للعالم. فالحركـة ذات طابع كلى مطلق، وكل صورة منها لها طابع كيفى خاص بهـا. وبذلك لا يمكن الفصـل بين المادة والحركة. اما الزمان والمكان فهما صورتـان كليتان لوجـود المادة. والمكان والزمان عنـد ماركس لهما وجود موضوعى مسـتقل عن الإنسـان، فهما لا ينفصلان عن المادة المتحركة فى حين أن كانط يرى إن المكان والزمان صورتان فطريتان فى الإنسان.

٢ - الجدل وقوانينه:

ما معنى الجدل فى الفلسفة الماركسية؟.

إن الجـدل يدرس العالم فى حركته الدائمة التى تكشـف عن تغيره وتطوره. وعلى ذلك فالتطور هو المحتوى الأساسـى لفكرة الجدل. ولكن كيف تفسر المادية الجدلية هذا. التطور ؟

إن التطور عند الماركسـيين هو حركة تتجه مما هو أسـفل إلى ما هو أعلى، من البسيط إلى المركب، من القديم إلى الجديد. ولا يحدث التطور بشـكل رتيـب، تدريجى وأنما هو يتم على شـكل طفـرة أو قفزة «كما يحدث فى التحول الكيميائى» أى إنه يحدث على شكل إنقلاب ثورى فجائى.

وحركة التطور عند الماركسـيين لا تسير فى خط مستقيم، وأنما تسير على شكل لولبى أو حلزونى بحيث ينتج عن هذه الحركة سلسلة لولبية مكونة مـن حلقات.. كل حلقة أكثر عمقا وخصوبـة وتنوعا من الحلقة التى تسبقها.

و لكن ما هو المحرك الأساسى للتطور أو للحركة الجدلية ؟.

إنه التناقضات الأساسية الموجودة فى الظواهر أو الأشياء فمثلا.. قد نجد فى الشىء أو الظاهرة الواحدة.. ما هو حار وبارد، ما هو صلب ولين، ما هو حى وميت، ما هو أنانى وغير أنانى، ما هو يقظ ونائم. ولكن الشىء أو الظاهرة تعرف بالصفة الغالبة فيه، سواء كانت حرارة أو برودة، صلابة أو ليونة، فأذا تغلبت صفة الحرارة كان الشىء حارا وهكذا. وهذه الفكرة أشار اليها الفلاسفة القدماء.

إذن الظاهرة تحمل فى طياتها نقيضها، ولذلك عبر الماركسيون عن ظاهرة التناقض هذه بقانون وحدة الأضداد وهذا هو القانون الأول والأساس للجدل عند ماركس. وهذا القانون يكشف عن مصدر التطور والقوى التى تحركه، ويعطى لنا صورة واضحة عن تطور العالم وتحوله. وعلى سبيل المثال، المجتمع الرأسمالى يشتمل على البروليتاريا والبرجوازية. وكل طبقة منهما تفترض وجود الطبقة الأخرى. وعلى الرغم من وجود تعارض وصراع بينهما فإنهما يؤلفان وحدة النظام الرأسمالى. وهذا هو معنى وحدة الأضداد وصراعها.

أما القانون الثانى فهو قانون الانتقال من التغير الكمى إلى التغير الكيفى وهذا القانون يبين كيف يسير التطور. فالتغير الأول وهو الكمى عبارة عن تغير فى حجم الشىء أو الظاهرة بالزيادة أو النقصان أما التغير الثانى وهو الكيفى عبارة عن تحول الشئ نفسه أو الظاهرة إلى شىء جديد أو ظاهرة أخرى جديدة. ويضرب ماركس مثلا يوضح به هذا القانون فيقول إن النظام الرأسمالى، إذا وقع له تضخم أو زيادة فى

الملكيـــة التى فى أيدى البورجوازيين فإن النظام يثرى ويتدعم عن طريق زيادة أو تكدس الملكية. أما إذا أختفت الملكية الرأسمالية وحلت مكانها ملكيـــة أخرى وهى الملكية الاشـــتراكية، فإن النظـــام الرأسمالى يختفى ويظهـــر بدلا مـــن نظام آخر هو النظام الاشـــتراكى. وفـــى خلال عملية التطـــور تنتقل التغيـــيرات الكمية تدريجا إلى تغيرات كيفية أساســـية، ويتم هذا التغير على شـــكل طفرة. ويرى الماركسيون أن التغير من النظام الرأسمالى إلى النظام الاشتراكى يتم فجأة أى بالأنقلاب الثورى فى حين أن الانتقال من الاشـــتراكية إلى الشيوعية يتم تدريجا والملاحظة الآن أن النظام الاشـــتراكى هو الذى انتهى فى كثير من دول العالم وخاصة التى كانت تعرف بالدول الاشـــتراكية وحل محله النظـــام الرأسمالى. أى إن الأمور قد حدثت على عكس ما توقع ماركس.

أما القانون الثالث فهو قانون «سلب السلب» الذى يبرز الاتجاه العام للتطـــور فى العالم المادى، حيث يأتى الجديد ويحل مكان ما هو قديم، وهـــذه العمليـــة – التى هـــى إحلال الجديد محل القديم – تســـمى نفيا أو ســـلبا، بمعنى أن الجديد ينفى القديم أو يســـلبه وجوده فعلى سبيل المثال.. البروليتاريا مع أنها انبثقت من النظام الرأسمالى، ألا إنها تدخل فـــى صراع مع الطبقة البرجوازية حتى تقضى عليها وتحل محلها. وفى ذلك يقول ماركس: «إنه لم يحدث أى تطور فى أى مجال بدون القضاء على صور الوجود القديمة فمجتمع الرقيق قضى على الشيوعية البدائية، ومجتمع الإقطاع قضـــى على مجتمع الرقيق، والمجتمع الرأسمالى قضى علـــى الإقطاع، والمجتمع الاشـــتراكى قضى على المجتمـــع الرأسمالى.

والملاحظ الآن أيضا أن المجتمع الرأسمالى هو الذى قضى على المجتمع الاشتراكى الذى أراده ماركس شاملا فى العالم. أى إن الأمور جاءت عكس ما توقع ماركس».

تلك هى قوانين الجدل، وهى التى تفسر المادية الجدلية. وهى أيضا تفترض أن العالم المادى كله مترابط، وأنه ينبغى دراسته بهذه الطريقة، وليس بالطريقة التى تتبعها العلوم الطبيعية الألية المتأثرة بالمنهج الميتافيزيقى التحليلى.

٣ - المادية التاريخية:

هى تطبيق للمادية الجدلية على تطور المجتمع. وهى أيضا عند ماركس تحل مشكلة فلسفية أساسية داخل نطاق المجتمع ألا وهى.. مشكلة العلاقة بين الشعور أو الفكر الاجتماعى والوجود. وعلى ذلك فهناك وحدة بين المادية الجدلية، والمادية التاريخية.

إن المادية التاريخية ترى أن الوجود الأجتماعى حقيقة موضوعية مستقلة عن الشعور الأجتماعى للأنسانية. وعلى ذلك يصبح الشعور انعكاسا للواقع المادى الخارجى سواء فى المادية الجدلية أو المادية التاريخية وهكذا يصبح تطور المجتمع قائم على اساس العامل الاقتصادى، وبعبارة أخرى الاقتصاد هو الذى يفسر تطور المجتمع.

بهذا تصبح المادية التاريخية قائمة على أساس فلسفى، وهى بذلك تحل المشكلة بين الوجود المادى والوجود الاجتماعى. وترى أن الأول سابق على الثانى، بل هو أصله ومصدره والمحرك الأساسى لتطور أشكال الحياة الأجتماعية.

وهنا يبرز سؤال.. وهو.. إذا كان كل تطور أو تغير يرجع إلى الحتمية التاريخية، فكيف أذن تتحقق حرية الإنسان؟.

يجيب الماركسيون عن ذلك بأن الناس عندما تدرك موضوعية الحتمية التاريخية، فإنه بذلك يتدخلون فى سير العملية التاريخية عن وعى وارادة، وبذلك تتحقق حريتهم، ويعنى ذلك أن حرية الإنسان، إنما تقوم على معرفة الإنسان «الحتمية الموضوعية» وتصميم إرادة الإنسان على إستخدام هذه الحتمية لمصلحته ومنفعته.

هذا، وتعتبر الفلسفة الماركسية أن حجر الزاوية فى المادية التاريخية هو قولها «إن أسلوب الإنتاج يلعب دورا حاسما فى تطور المجتمع» فالعامل الحتمى الوحيد، أو المحرك الأساسى فى تطور المجتمع هو أسلوب الثروة المادية. وهنا يجب أن نفرق بين أسلوب الإنتاج، وقوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج.

وهكذا فالتاريخ البشرى يقوم على أساس مادى. ويخلص ماركس من ذلك إلى القول بأن نظام الأنتاج هو العامل النهائى والحاسم الذى يقرر شبكة العلاقات الإنسانية.

٤ - الصراع الطبقى:

يرى ماركس أن صراع الطبقات يلعب دورا أساسيا فى عملية التطور الاجتماعى. ولما كان كل مجتمع له «أساسه الاقتصادى» والذى يميزه عن غيره من المجتمعات الأخرى. أصبح «النظام الاقتصادى» لأى مجتمع هو الذى يحدد تركيب طبقاته وعلاقاتها بل وأفكارها. وبعبارة أخرى،

لما كانت ظروف الناس وأحوالهم المعيشية هى التى تحدد تفكيرهم وسلوكهم، فأن الطبقة الاجتماعية لابد أن تتكون من الناس الذين تتشابه ظروفهم المعيشية، وهؤلاء يتكتلون ضد الطبقات الأخرى والتى تتعارض مصالحها مع مصالحهم، ومن هنا ينشأ الصراع بين الطبقات بسبب تعارض المصالح.

وسوف يتخذ الصراع بين الطبقات أشكالا مختلفة، اقتصادية أو سياسية أو أيدولوجية، وكل هذه الأشكال سوف تمهد للثورة الاشتراكية التى هى ثورة البروليتاريا. وهى الوسياة الوحيدة فى نظر ماركس للقضاء على أسباب هذا الصراع. وهذا الصراع هو تعبير عن التناقدات الأساسية بين قوى الانتاج وعلاقات الانتاج أى بين أسلوب الانتاج وصور ملكية وسائل الانتاج وبذلك يكون الصراع محركا لعملية التطور الاجتماعى ومحققا لاشكال جديدة اجتماعية حتى نصل فى النهاية إلى شكل المجتمع الشيوعى الذى تتلاشى فيه الطبقات وهنا تنقضى عوامل الصراع.

٥- نظرية المعرفة عند ماركس:

يرى ماركس أن الإنسان سوف يعرف العالم عن طريق حواسه، وهذه الحواس سوف تمد الإنسان بمعرفة صحيحة عن هذا العالم. وليست هذه المعرفة مشيدة لموضوعات العالم الخارجى، وإنما العالم الخارجى له موضوعيته الخالصة التى تجعله مستقلا ومنفصلا عن شعور وفكر الإنسان، هذا على الرغم من أن الشعور أو العقل الإنسانى قد تكون

أصلا من صورة معقده للمادة المتطوره كما ذكرنا سابقا. فالمعرفة عبارة عن أنعكاس صيرورة الاشـخاص الأشـياء على النفس بحيث لا يكون هناك فكر منفصل عن الواقع الخارجى، بل يوجد واقع خارجى ينعكس على صفحة النفس فتدركه فى تمام طبيعته المادية ونتيجة لذلك يصبح مقياس الحقيقـة ليس فطريا أو منطقيا وإنما هذا المقياس يرجع إلى العمل وعلى ذلك يصبح العمل هو المحل الوحيد لصحة المعرفة وبعبارة أخرى يكون التطبيق هو مقياس صحة الفكر. وهنا تتشـابه الماركسـية مع الباجماتية حيث يرى بعض النقاد أن الماركسـية والبراجماتية قد صدر عن فلسـفة كانـط، إلا إنه حدث تمايز بينهما نتيجة لاختلاف الاطار المذهبى العام عند كل الماركسية والبرجماتية.

٦- نظرية فائض المعرفة:

إن هذه النظرية تقوم على أسـاس أن.. قيمة كل سـلعة تعتمد على مقـدار العمـل النافع اجتماعيا والمجسـم فى تلك السـلعة. ولهذا فإن العمل هو المصدر المشـروع لكل قيمة. وببسـاطة فهذه النظرية تعنى إن أصحاب رءوس الأموال يسـتغلون العمال أكثر من الوقت الذى يعملونه، وفائض هذا الوقت ينتج عملا يسـتفيد منه الرأسمالى فقط، ولا يسـتفيد منه العامل. فإذا كان وقت العمل الرسمى ٨ سـاعات فإن صاحب رأس المـال يجعـل العمال يعملون ١٠ سـاعات مثلا، ويعطيهـم فقط أجر ٨ سـاعات، والفرق هو سـاعتين عمل يعود ربحه إلى أصحاب رأس المال فالعامـل يحصل هنا على الحد الادنى الضرورى للاجر لمجرد المعيشـة

والكفاف، ويسرق منه الراسمالى فائض عمله. وليس هذا الحد الأدنى للكفاف سوى جزء من القيمة التى خلقها العامل بجهده أما الباقى فيذهب إلى الرأسمالى مما يؤدى إلى تكدس الاموال لدى الرأسمالى بحيث نجد إن الغنى هو الرأسمالى يزداد ثراء والفقير وهو العامل يزداد فقرا. وهذا نوع من إستغلال الإنسان للإنسان. وهو فى نفس الوقت يسىء إلى العلاقات القائمة بين العمال وصاحب العمل، مما يدفع العمال إلى التكتل والتوحد أمام الرأسمالى للحصول على حقوقهم. وهذا يعنى الصراع الطبقى الذى تحدثنا عنه سابقا. والذى سوف يؤدى فى نظر ماركس إلى ثورة البرولتاريا على البرجوازيين وسحقها للحصول على فائض القيمة اى الحصول على القيمة الحقيقية لجهدهم وعملهم، وهذا لا يتم إلا بالقضاء على الطبقة البرجوازية واستيلاء البرولتاريا على السلطة فى الدولة واقامة حكومة البرولتاريا التى تحقق لهم مطالبهم وترد لهم حقوقهم فى العمل والتى سرقها منهم أصحاب رأس المال.

تلك هى أفكار ماركس وآرائه والتى أقامها على أسس مادية جعلته ينكر الدين معتقدا أنه أفيون الشعوب. وسوف نعرض الآن بالنقد لهذه الآراء والأفكار.

٤- ملاحظات نقدية لآراء وفكر ماركس:

سوف نعرض لهذه الملاحظات كما يلى:

أ – يدعى ماركس بأن نزعته أو فلسفته المادية تتسم بالطابع العلمى، ولكن النقاد يرون أن هذا الأدعاء لا يقوم على أسس من المنطق

العلمى نفســه، فنحن نعلم أن العلم لا يؤمن إلا بما تقدمه الملاحظة والتجربة، وما كان خارجها عنهما فإن الباحث التجريبى لا يقطع برأى فيه. أما ماركس فأنه يقرر أن الموجودات المادية هى الموجودة وحدهــا ولا شــىء غيرها. وفى الحقيقــة هذا قول بدون ســند من الملاحظة أو التجربة.

ب – اعتناق ماركس للفلســفة المادية جعله ينكر القيم الروحية، ويعتبر الدين معوقا للتطور الأجتماعى، وأنه مخدر وأفيون للشعوب ومعطل لانطلاق طاقاتهم وابدعاتهم ولهذا حاربت الشيوعية الأديان بعنف مع العلم أن الأديان تلعب دورا حاسما فى حياة البشر بما تقدمه مــن قيم ومثل نبيلة. ويمكــن القول أن ما تعانيه الحضارة الغربية الآن يرجــع فى مجمله إلى ما هو مادى وتركها لكل ما هو روحى ومعنوى، وانغماس الشــباب بصفة خاصة فى الماديات. وفى ذلك يقول الفيلســوف الفرنسى المعاصر الشهير «روجيه جارودى»: إن الحضارة الغربية هى حضارة مادية بحته، ولذلك فإن الأنسان قد فقد مقوماته كإنســان، والملجأ لعودة الإنسان إلى ذاته هو اعتناقه للإسلام. ولذلك أشهر «جارودى» إسلامه.

جـ – وحدانية التفسير الاقتصادى برغم أهميته أمر لا يتسق وتاريخ البشر فكل حــادث تاريخى ينطوى على عنصر إقتصــادى، ألا إنه من الخطأ إرجاع التطور التاريخى كله إلى عوامل اقتصادية بحتة فقط.

د – حريـــة الإنســـان، ســـلبها ماركس وحصرها فقط فـــى وعيه وفهمه للتطور الحادث فى العـــالم الخارجى حتى حركة التطور لا دخل لإرادة الأنسان فيها، وإنما هى ترجع إلى القوانين الإجتماعية.

هـ – إن الماركســية فى ســبيل اقامــة المجتمع الشــيوعى ألغت وجود الإنسان، فهذا الإنسان لا دخل له فى وجوده، وإنما المجتمع هو الذى يشكل الإنسان ويكونه ويوجهه كيفما يشاء..؟

و – فكــرة الصراع الطلقى ليســت فكرة جديدة، ابتكرها ماركس، وإنما سبقه إليها كثير من المفكرين مثل: ترجو، ميرابو، هولباخ. وحتى مــع التســليم بوجود هذا الصراع إلا إنه مــن الخطأ ارجاع التطور التاريخى إلى هذا الصراع وحده.

ز – إن الشكل الشيوعى والذى سينتهى إليه التطور الإجتماعى، حسب رأى ماركس، لم يتحقق حتى فى روســيا نفســها، بل أن وقائع التاريخ أثبتت منذ عام ١٩٨٩م انهيار الشيوعية فى معظم منظومة الدول التى كانت تؤمن بالشيوعية.

حـ – إن نظريــة فائض القيمة ترجع فــى أصولها إلى نظرية القيمة عند أدم سميــث وريكاردو وقانون الأجور الحديدى. وإلى نظرية فائض القيمة عند طومسون وسيسموندى. ونلاحظ أن ماركس فى تحديده للقيمة يرجعها فقط إلى العمل اليدوى ويهمل العمل الذهنى كما أنه يهمل نصيب رأس المال فى الربح والابتكار فى عائدات الانتاج.

وبالرغم من كل ذلك فـأذا كنا نختلف مع ماركس فى آرائه وأفكاره، والتى اختفت باختفاء الاتحاد السوفييتى ومنظومة الدول الشيوعية التى

كانــت تدور فى فلكه فإننا لا نســتطيع أن نتجاهل هذه الآراء والأفكار التى أثرت الفكر الإنسانى منذ نشأتها حتى قرب نهاية القرن العشرين. ولا زالت بعض الدول فى آسيا وأوربا وأمريكا اللاتينية تؤمن ببعض هذه الأفــكار والآراء. بل يمكن القول أن نظرية «الطريق الثالث» التى أعلنها كل من «كلينتون وبلير» تأخذ ببعض أفكار ماركس وخاصة فكرة العدالة الأجتماعية والتنمية.

ملاحظة مهمة:

مــا دفعنــى إلى الكتابة عن «ماركــس» هو ما ســألنى عنه كثير من تلاميــذى من الشــباب عــن «ماركس» وأفــكاره عن الماديــة الجدلية، والحتمية التاريخية والصراع الطبقى ونظرية فائض القيمة وغير ذلك من أفكار ومفاهيم «ماركس» حتى عن معنى الشــيوعية. ومعظم هؤلاء الذين سألونى من الذين لم يعايشوا الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية الآخرى قبــل انهيارها، أو سمعوا عنها فقط. وقد آثرت بناء على ذلك أن أكتب عنه باختصار وبوضوح وسهولة فى العرض إلى حد كبير.

❑❑❑